مقدمة

الانفصام النقدى سمة الكتابات هذه الأيام ، ويمكن أن نسحب هذه المقولة على جوانب النشاط الإنسانى نظرًا وعملاً فى حياتنا الآن ، وذلك ديدن الناس فى الحقب الخابية ، التى تبدى فيها الألسنة غير ما تنطوى عليه الضمائر ، فتتسع مسافة الخلف بين الظاهر والباطن ، الخوف يعقد الألسنة ، والنظر إلى المصالح الدوانى ، أو مايمكن أن يكون مصلحة يشل الذوق والكلمات ، ولذا لاتكاد ترى إلا أنضاء مهازيل وإن كانوا من ذوى الشارات والطيلسان !!

السوق النقدية - إذا انطبق عليها هذا النعت - نافقة مظهرا ، كتابة فى الدوريات وفى المجلدات ، لكنها تفتقر إلى «الرصيد» الصادق الذى يمنحها كفلها من القبول والتأثير ؛ لأن القارئ الطبن يعرف - بداءة - من مجرد اسم الكاتب ماذا وراء هذه الكتابات ، غلبت عليها شقشقة اللفظ ، ومهارة التصنيع أو التصنع، على حساب الجوهر المكنون وراء كل كتابة ، من هذا السنخ الذائع بيننا الآن.

لقد غدوت أرى الأعمدة أو المقالات الأسبوعية فى أغلبها ، فأمر على عنوانها مبتسماً ، وربما أقهر النفس - أحياناً - أن تقرأ ، فلا أكاد أجاوز الأسطر الأولى، لاعنًا الكتابة والمكتوب عنه ، حيث أدرك - فى التو - ربما من العنوان - عريضة الدعوى ، وأتعاب المحاماة ، والتعويض المنتظر !! وهل ينتظر من أمة تريد أن تنهض من مجاثمها بمثل هذا النظر النقدى الأعشى ، أو «الأحول» إن شئت .

وبعض هذه الكتابات تتزيا بغير زيها ، وإذا رمت أن تعيدها إلى أصحابها سهل عليك هذا ، ولايبقى إلا البجاحة والادعاء ، وهل بهما تقوم ناهضة فى النفوس والأذواق .

أقرأ مبتسماً بعض الكتابات ، ولكنها ابتسامة مُرَّة مثل بسمة الشابى الذى كان يستل بها من الشوك ذابلات الورود ، وهى كتابات طافحة بكل الآفات اللغوية

والفكرية ، وربما هان هذا - وإن كان لايهون - غير أن الذى لايهون - بحال - تلك المدابرة بين الإفضاء والكتمان ، «فاصدع بما تؤمر» إن الهوة ناشبة فى النفوس، قبل أن تكون بادية فى شباة الأقلام .

وإذا رغبت أن تقف على هذه الهوة - ترتعد فيها الظنون - فقف - غير مأمور- على كم هائل من تلك الكتابات عن أسماء ما أنزل الله بها من سلطان ، وأصبحت فى طوايا الإهمال المستحق ، أو عن أسماء تستحق بعض ما يقال - فيما يسمى بالنقد التطبيقى - وغيِّر الأسماء كلعبة الكراسى الموسيقية فلا تعدم الصواب ؛ لأن تلك الكتابات مثل «الأميبا» الخلية الواحدة ، وكله عند العرب نقد أو «صابون» يتزلج حيث شاء .

النقد التطبيقى - ومنه أغلب هذا الكتاب - محاولة للتفسير والتقييم ، مع مراعاة الخلاف بين النقاد فى مسألة التقييم وإصدار الأحكام ، ونحن مع الحكم بعد تقديم «حيثياته» ، وإن بدا مشيج من المجاملة فهى مجاملة محسوبة ، تتوقع التقدم ، وتنظر إلى المستقبل ، ولا تريغ ما يريغه أقلام أخرى ، تحدوها الشبهة ، وانتظام المغانم ، وقد حاولنا فى هذه الكتابات عن الكتب وأصحابها أن نقوم بواجب تمليه أمانة الضمير وتحنث الحق ، ولم نتخل عن ذوق الشاعر - وهو الوجه الأول عندنا - حين ينبغى أن يتقدم ، خاصة فيما يتصل بنقد الشعر أو مايدخل فى بابته ، أو كان لسان الشاعر عونًا لقلم الناقد ، والمبدع أولى بالتقديم فى كل حال؛ لأن الحياة شحيحة بمثل هذا الجنس البشرى ، الذى هو من الناس وليس منهم فى آن .

وقد طال التطواف فى هذه الكتابات ، ولكن يربط بينها «النقد» أو «الرؤية النقدية» إن شئت ، وربما شحبت الحيثيات أحيانًا ، حيث لاتسمح الصحيفة السيارة بمثل هذا البسط ، غير أن الإيماءة أحيانًا تكون دالَّة ، وغانية عن طرح كثير، وربما تتسع بعض هذه الكتابات فتصبح كتبا ، وإن كانت - بحالتها تيك - فيها بذرة الشجرة تحمل الأغصان والأوراق والثمار والأزهار بقدر يسير من التخيل.

وثمة شهادة واجبة ، هى أن ما كتب كان بروح واحدة لاتجنح إلى الإغماض - وهو ديدن كتابات كثيرة فى أيامنا الرديئة - ولا إلى التعالم بالمصطلحات ، لأن توخى القارئ كان وراء القصد ، بل ربما تخفف الأسلوب واللغة - بعض الشىء- وأشهد أننى كنت أجد عنتًا فى مثل ذلك التخفف - لكنه لم يكن تخفف الكلام الغسيل ، فما له سبيل إلى نفسى بحال ، وحسبه أن يوائم بين الفكرة وثوبها - وهل الثوب إلاّ الفكرة - إنه فصل متعسف ، درج عليه أهل الصنعة ، وكان ديدنى- فى كل ما أكتب ـ ديدن المتنبى قديمًا مع حبيباته ظباء فلاة ما عرفن مضغ الكلام ولا صبغ الحواجيب ، وإن كنت أحب - حضريًا - اهتمام الجمال الذى يذهلك عنه به ، ويقدم إليك صورة جميلة مع قليل من الاعتذار ، فقد أعجل الوقت الجميلات عن إتمام الزينة ، وهكذا كانت الصحيفة السيارة تقتضى بعض العجلة ، ولكنها لم تعدم التريث ، ويبقى بعدها متسع لقليل من الاعتذار ، لكنه اعتذار غير مقصر عن بلوغ الشوط ، وينبئ فى الوقت ذاته بجمال الفطرة ، وبساطة الصدق ، وحلاوة الزينة غير المجتلبة .

وقد درج كُتَّابنا - منذ أمد - أن يجمعوا مقالاتهم فى كتب ، تيسر القراءة والفائدة ، وتقدم للقارئ ما يعسر عليه جمعه من المظان المتناثرة ، ونحن لانهتم كما كنا نهتم قديما - بالدوريات ، تعبث بها الأرضة الحشرية والبشرية ، وكان بعضهم يتحدث - مزهوًا - بأنه كان يقطع المقالات من الدوريات القديمة دون أن يكلف نفسه قراءتها ونقلها قبل أيام التصوير ، فإذا جمعنا هذه الكتابات فإنما نحاول منجاتها من أيدى الأرضة ، وأن نقدم لحضرات القراء - فى زمن لاهث ردىء - مثل هذه الكتابات - وقد ضاع كثير منها - التى تؤرخ - بالمعنى العام - لحركة الأدب والنقد فى أيامنا ، ولعلها تسهم فى تحريك راكد آسن ، قد طال إصره وإن بدت فى الأفق القريب بشارات أو نذارات - لاندرى - تجرف هذا الركود ، فنخرج من ذلك الكهف الذى نحسبنا فيه أيقاظًا ونحن رقود .

أبو همّام